

# ماحمة الراعي النميري قصيدة الرّفَض والاحتجاج

د. مخيمر صالح

أول ما يواجه الدارس المتعمق للمحمة الراعي النميري ، مدى صحة تصنيف القدماء والمحدثين للقصيدة على أنها في « مدح عبد الملك بن مروان ، والشكوى من السعاة والعاملين » (١) . أما أنها في الشكوى من السعاة والعاملين فهذا صحيح ، وتفصح عنه القصيدة بوضوح وبصراحة في كثير من أبياتها ، وأما أن تكون القصيدة في مدح عبد الملك بن مروان ، فهذا ما لا يخرج به المتعمق فيها ، فالقصيدة لا يوجد فيها بيت واحد في مدحه ، ذلك المدح الذي ألف الخلفاء سماعه من الشعراء ، وأبيات المدح القليلة التي وجدت في القصيدة ، هي في مدح مروان ، ولعل هذا هو الذي أدى بالعلماء كي يصنفوها هذا التصنيف .



وحتى في هذا المدح القليل لم يكن الشاعر يمدح « مروان » أو « عبد الملك ابنه » ، وإنما كان يتغنياً منه شيئاً واحداً ، هو حث عبد الملك كي يكون حازماً قوياً ، مثلما كان أبوه قوياً حازماً في أيام الفتنة . ان الشاعر يريد أن يشير الى أن عهد عبد الملك ، يشهد فتنة لا تقل عن الفتنة التي شهدها عهد مروان ، وكيف أنه استطاع بقوته وحزمه أن يخمدها . يقول الراعي عن مروان :

مروان أحزمها اذا حلت به حذب الأمور وخيرها مسؤولا

ويخاطب عبد الملك قائلا :

أنت الخليفة عدله ونواله واذا أردت لظالم تنكيلا  
فارفع مظالم عيئت أبناءنا عتبا وأنقذ شلونا الماكولا

فالقصيد في مجملها شكوى وصراخ (٢) .

وليس هذا فقط ، بل ان الراعي هدد وتوعد بالخروج والتمرد عندما قال :

## فلئن سلمت' لأدعون بظننة تدع الفرائض بالشريف قليلا؟؟؟

وتقول الأخبار : ان عبدالمملك قال للراعي بعد أن سمع هذا البيت : فأين أنت من الله والسلطان لا أم لك ؟ فأجابه الراعي يا أمير المؤمنين : من عامل الى عامل ، ومصدق الى مصدق .

لقد كان عبدالمملك أكثر فهماً للقصيدة من بعض الناس . ذلك أنه قال للراعي بعد سنة عندما قدم اليه مادحاً : أنت العام أعقل منك عام أول (٣) .

يقول الراعي من القصيدة الثانية هذه مادحاً عبدالمملك بن مروان :

أنت الحيا وغيث نستغيث به (٤) لو نستطيع فذاك المال والولد

بل ان الراعي يرجو عبدالمملك رجاء اذ يقول :

نرجو سجالا من المعروف تنفجها لسائليك فلا من ولا حسد'

ان فطنة عبدالمملك ، جعلته لا يحس احساس الممدوح بل احساس المتهم من خلال عماله المقصرين . هذا فيما يتعلق بعبد الملك . أما فيما يتعلق بالشاعر ، فالواضح أن القصيدة لا تكشف أن الباعث الحقيقي كان مدحاً ، بل كان الباعث احتجاجاً ورفضاً للسياسة الاقتصادية ، اذ أن بداية القصيدة تكشف عن هم مطبق ألم بالشاعر ، وليس ذلك ما يحس به الشاعر المادح عادة . ثم ان الراعي يقول: فلئن سلمت . . . . . وليس هذا ما عودنا سماعه الشعراء المدايحون : ان الشاعر كان يخشى غضب الخليفة وبطشه ، ولم يكن يأمل العطايا والهبات كما هو الشأن مع الشعراء والمداحين .

وليس صحيحاً ما ذكرته الدكتور عزيزة فوال نقلا عن خزائن الأدب أنه قال : « من لم يرو قصيدتي في مدح عبدالمملك بن مروان التي أشكو فيها من السعاة . . . . . من ولدي فقد عقني » (٥) . والرواية كما جاءت على وجه الدقة هي : « . . . . . وهي قصيدة جيدة كان يقول : من لم يرو لي من أولادي هذه القصيدة وقصيدتي التي أولها بان الأوبة - وهي في هذا المعنى أيضاً - فقد عقني » (٦) . فلم يذكر كما جاء في الرواية أنه مدح عبدالمملك بن مروان البتة .

ان الرفض والاحتجاج ، هما الطابع العام لهذه القصيدة ، فكل جانب من جوانبها يشير الى ذلك ، وليس بعيداً أن يكون حرف الروي لهذه القصيدة يشير الى ما ذكرناه ، فقد جاء روي القصيدة « لا » وهو حرف له دلالة الكبيرة فكان الراعي يقول في قصيدته « لا » عدد أبيات القصيدة بشكل واضح بارز .

ان المفهوم الذي انتهت اليه النظرة المتعمقة للقصيدة ، يقود الى أن القصيدة تطرح موضوعاً واحداً ، وتثير قضية واحدة أحس بها الشاعر ، وعبر عنها ، هي الشكوى والاحتجاج ، غير أن الشاعر قد نهج نهجاً جديداً في قصيدته هذه . وهي خاصية امتاز بها الراعي وذكرها

له ابن سلام في طبقاته حيث يقول عن الراعي: « وكان يقول له في شعره : « كأنه يعتسف  
الفلاة بغير دليل أي أنه لا يحتذى شعر شاعروها يعارضه (٧) » . فقد جاءت القصيدة  
بمستويين ، طرح الشاعر قضيته طرحاً عميقاً على شكل لوحات فنية مختلفة من خلال عوالم  
تقليدية ، وبخاصة رحلة الابل ، واستخدم الشاعر لتشكيل لوحاته ألفاظاً صعبة موحية  
معقدة تتناسب مع موضوع الابل وعالم الرعاة، وليس هذا بغريب على شاعر لقب بالراعي  
لكثرة ما وصف الابل ورعاتها ومثال ذلك :

قلص ، لواقح ، الحوارك ، حويزة ، بزلن ، مزلة ، ريّض ، أثباجها ، دلف الرواح ،  
تنوفة ، ربداء ، ذميلا ، مائرة ، ... وهكذا .

أما المستوى الثاني فجاء بمنتهى الوضوح واليسر، اذ عرض الشاعر موضوعه بوضوح  
تام لا يستعصي فهمه على أحد ، لا على أفراد قبيلته ، ولا على العمال الذين شكاهم ، ولا  
على الخليفة ، حتى ولا على ابنته التي خاطبها في بداية القصيدة ، واستخدم ألفاظاً سهلة  
واضحة ، ويحس القارئ بسهولة ، اختلافاً بين المستويين ، الأمر الذي قد يدفع بعض  
القارئ لقصيدة الراعي الى أن ينتهوا الى أن القصيدة ذات موضوعين : الأول : الابل  
والرحلة ، والثاني : الشكوى والاحتجاج ، وما يتصل بالموضوعين من تصوير للهم والأرق  
وعريف القبيلة أو الحديث عن مروان بن محمد ، وهذا ما أشار اليه أبو زيد القرشي  
عندما سمى هذه القصيدة «ملحمة» أي القصيدة التي تتلاحم أجزاءها بعضها ببعض ، ومن هنا  
أقول : ان القصيدة ذات موضوع واحد ، وما الأجزاء التي جاءت في القصيدة الا أبعاد  
أو صور أو لوحات تتحد وتتجمع لتشكيل الموضوع الأساس ، واتبع الشاعر كذلك  
مستويي تعبير كما ذكرت لقد طرح الشاعر موضوعه . في المستوى الأول بريشة الفنان،  
الشاعر المحلق فجاءت بهذه الصورة . أما في المستوى الثاني : فكان يعبر عن قضيته بقلم  
المحامي (٨) بل انه استخدم أساليب المحامين وطرائقهم، من حيث عرض القضية والاحتجاج  
لها ودفع الاتهام ، والتماس احقاق الحق وغير ذلك .

وكان على الراعي أن يستخدم ألفاظاً واضحة صريحة مثل : رسالة ، عويلا ، مظالم ،  
التقلب ، المنام ، كسولا ، حلفت ، يمين ، أكذب ، طائعا ، عرب ، أموالنا ، الزكاة ، تنزيلا ،  
الرحمن ، منافق ، وهكذا .

ولذلك فان المستوى الثاني بوضوحه وسهولة فهمه ، يعين على فهم المستوى الأول ،  
وهذا ما يدعو الى القول بأن القصيدة تمتاز بوحدة موضوعية وعضوية ، فهي وحدة واحدة  
من المشاعر والأحاسيس متلاحمة الأجزاء كما عبر عن ذلك القرشي أبو زيد .

ان المدخل لفهم قصيدة الراعي بمستوييها، يتمثل في متعادلين مترابطين ، الأول : التأزم  
الذي عاشه الراعي الشاعر ، أو الانفلاق ، وهو هنا الأرق ، الهم ، الاضطراب ، الخوف .  
والثاني : التوازن أو الانعتاق وهو هنا ، الوضوح ، الصراحة ، الشكوى والاحتجاج ، طلب  
رفع الظلم ومعاينة الظالمين وهذان البعدان - التأزم - والتوازن - لا تستغني عنهما عملية  
شعرية تاجعة .

بدأ الشاعر قصيدته ببداية ألفنها عند غيره من الشعراء ، تتمثل بتساؤل من أحد الناس عن قلق الشاعر وأرقه ، غير أن الراعي كان متفرداً في هذه البداية . فهو لم يصرح عن المتسائل الا في ثالث بيت ، ومعنى هذا وضع السامع أو القارئ في جو مغلق متأزم ، وفي البيت الثاني يعرف القارئ أن المتسائل كان امرأة ، ولم تكن هذه المرأة حبيبة أو زوجاً كما اعتاد الشعراء كأبي ذؤيب مثلاً ، ولكنها كانت عند الراعي ابنته ، وهي عنصر أقل ادراكاً لهموم الوالد من الأم فقلما تحس بما يعانيه أبوها . وقد يكون حضور شخص الابنة في قصيدة الراعي راجعاً الى تلك المنزلة التي منحها الاسلام لها ، وقد يكون استحضار صورة الابنة راجعاً أيضاً الى أن الراعي وهو المصمم على عرض شكواه ، لم يمنعه حبه المكين لابنته ، وشدة تعلقها به ، من تنفيذ فكرته والسفر الى الخليفة كي يسمعه شكواه . يقول :

ما بال دفك بالفراش مذيلاً      أقضى بعينيك أم أردت رحيلاً  
لما رأت أرقى وطول تلديني      ذات العشاء وليلي الموصولاً  
قالت خليدة ما عراك ؟ ولم تكن      يوماً اذا عرت الشؤون سؤولاً

ولعل مما يؤكد هذا الفهم ، أن الراعي أتى بصورة خليدة وموقفها هذا في قصيدة أخرى ولكن بصورة أوضح عندما شكا السعاة أيضاً حيث يقول (٩) .

قامت خليدة تنهاني فقلت لها      ان المنايا لميقات له عدد

أما اجابة الراعي على تساؤل ابنته ، فجاءت عامة غير محددة أو واضحة في البيت الرابع - وعدم التحديد ينسجم مع روح التأزم أو الانفلاق . يقول الراعي :

أخيلد ان أباك ضاق وساده      همّان باتا جنبه ودخيلاً

ولكنه لم يبين طبيعة هذين الهمين أو ماهما ، بل وصفهما لتضخيم أثرهما عليه . ان الاستعارة المكنية ليست كل ما في البيت السابق ، وإنما حملت كل لفظة فيه شيئاً ، مما كان يدور في خلد الراعي ، ان الضيافة المقصودة عند العرب لم تكن الا للسيد المأمول . ثم ان ضيافة الليل تشير الى خطورة الأمر وأهميته ، فما بالك اذا داهم الضيف مخدع المضيف ، ولم يكن ضيفاً بل ضيفين أي همين ملكا عليه نفسه وأرقاه . وبالرغم من محاولات كشف الانفلاق من خلال هذا التحليل ما زال السؤال قائماً ، ما هما هذان الهمان ؟ وهنا يأتي دور المستوى الثاني في التعبير الواضح الصريح ، لقد كشف الشاعر في هذا الجزء عن أثر هذين الهمين في جسمه اذ نحل ودق ، واشتعل شيب رأسه ، وشحب لونه . يقول :

وعلا المشيب لداته وخلت له      حقب نقضن مريره المفتولا  
فكان أعظمه محاجن نبعة      عوج قدمن فقد أردن نحولا

كحديدة الهندي أمسى جفنه      خلقاً ولم يك في العظام نكولا  
تعلو حديدته وتنكر لونه      عين رآته في الشباب صقيلا  
ويكشف المستوى الثاني بشكل أوضح عن طبيعة هذين الهمين اذ يقول الشاعر :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة      تشكو اليك مظالمًا وعويلا  
من نازح كثرت اليك همومه      لو يستطيع الى اللقاء سبيلا  
طال التقلب والزمان ورابه      نحل ويكره أن يكون كسولا  
ضاق الهموم وساده وتجنبت      ريثان يصبح في المنام ثقيلا

واعتماداً على ما سبق ، يمكن أن يكون الهمان هما : هم القبيلة وما لحق بها من جور وظلم ، وهذا الهم حمله الراعي لأنه كان المتحدث باسمها ، وكان زعيماً لقبيلته اذ ورث الزعامة والسيادة عن والده . وهم ذاتي هو خوفه من نتيجة اللقاء المرتقب، وهذا الاحساس حفزه للقول :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة  
وجعله يقول مرة : فلئن سلمت

ان الراعي كما تكشف القصيدة بمستويها ، عاش صراعاً أسلمه لتلك الحال التي تحدث عنها في بداية قصيدته ، ومما قوى من الصراع ما عرف عن الراعي من كره لبني أمية وقل فيهم أشعاراً منها :

بني أمية ان الله ملحقكم      عما قريب بعثمان بن عفان(١٠)  
غير أنه حسم الصراع الذي لفه بقوله :

طرقا فتلك هما همي اقريهما

لأن من عادة المضيف أن يكرم ضيفه ، فكيف كان كرم الراعي ؟ أما في المستوى الأول، فكان الكرم نياقاً قوية سميكة كثيرة مشهورة ، أصيلة ، وكل هذه الصفات تصب في قناة القوة والشرف والسؤدد ، وهي صفات أحس بها الراعي في نفسه يقول :

شم الحواريك ، تناسب شديداً وجديلا ، ..... قلصا لواقع كالقسي وصولا ..... ،  
بنيت مرافقهن فوق منزلة ..... وهكذا .

فماذا قدم الراعي في المستوى الواضح المكشوف ؟ لقد قدم وثيقة أو رسالة ، كما سماها - يشرح فيها في مواجهة مع عبد الملك ، موقفه وموقف قبيلته من بني أمية ، بتسلسل أقرب الى أسلوب المحامين ، فقد بدأ «مرافعته» بالقسم على قول الحق .

يقول :

انني حلفت على يمين برّة لا أكذب اليوم الخليفة قـيـلا

ثم دفع التهمة الموجهة اليه ، بأنه مع الفرق الأخرى المناوئة لبني أمية كالزبيريين أو الخوارج ، الأمر الذي جر عليه وعلى قبيلته كل ما كان . فقد كان الأمويون ينتقمون من القبيلة كلها اذا تبين ان زعيمها أو شاعرها يتعاطف مع فرق أو أحزاب أخرى ، واعتماداً على ماض غبر ، يرجع الى يوم مرج راهط عندما وقفت قبيلة نمير الى جانب قيس عيلان ضد الأمويين ، صنف الأمويون النميريين زبيريين الهوى ، ولهذا ألح الراعي على رفض هذا « التصنيف السياسي » ومحاولة محو هذا الماضي ، فمرة يمدح بشر بن مروان بقوله :

فلو كنت من أصحاب مروان اذ دعا

ولكنني غيبت عنهم فلم يطع

ومرة أخرى يقول في هذه القصيدة :

ما زرت آل أبي خبيب طائعا

ولما آتيت نجيدة بن عويمر

ثم يخاطب الراعي عبد الملك مستخدماً لفظتين لهما تأثيرهما الخاص ، فكان الراعي يذكره بمعانيهما ، وهما الخلافة ، والرحمة ، فيقول :

« أخليفة الرحمن » ، ( البيت ٤٧ ) ذكر الخليفة ( البيت ٥١ ) ، « يدعو أمير المؤمنين » ( البيت ٥٧ ) . ويشير الراعي الى أنه وقبيلته مسلمون أحناف يستحقون الرحمة والعدل ، ويقومون بالفرائض حق قيام .

يقول :

أخليفة الرحمن انّا معشر

عرب نرى لله في أموالنا

وكلمة « عرب » في البيت الثاني ما هي الا محاولة حاولها الراعي لتوجيه أنظار عبد الملك الى مبدأ طالما عزف عليه الأمويون وهو « العرب والعروبة » .

وبعد دفع التهمة، عرض شكواه ومظلمته باسم القبيلة ، وذلك بأسلوب مؤثر ، مستخدماً الصور الواقعية، التي كشفت السعاة المزورين، المحتالين ، العتاة ، المختلسين لأموال الزكاة ، والذين أهانوا عريف القبيلة . وضربوه ضرباً مبرحاً وأكروهه تحت وطأة التعذيب على كتابة « صك » كاذب . يقول :

ان السعاة عصوك يوم امرتهم      وأتوا دواهي لو علمت وعولا  
كتبوا الدهيم من العداء لمسرف      عاد يريد خيانة وغلولا  
ذخر الخليفة لو أحطت بعلمه      لتركت منه طائفاً مفصولا  
أخذوا العريف فقطعوا حيزومه      بالأصحية قائماً مغلولا

أما لوحة الابل وارتحالها في المستوى التعبيري الأول ، فتقابل في المستوى التعبيري الثاني ، قبيلة الشاعر وأفرادها ، فابل الشاعر قوية سميثة أصيلة ، وهي صورة قريبة الى حد كبير من قبيلة الشاعر ، ذات السؤدد والمركز والقوة قبل المحنة التي ألمت بها . غير أن هذه الابل تعرضت لأكثر من اختبار صعب بعد ما خطت خطوات ليست بالكثيرة ، مما أفقدها القدرة على مواصلة الرحلة ، فقد ألم الاعياء ، بقائدة الركب « المائرة » فأجهدت ، مما أدى الى اجهاضها فولدت « سليلا » قبل مواعده في العراء ، في مهب الريح ، حيث البرد وقسوة الحياة ، يقول :

يتبعن مائرة اليدين شملة      ألفت بمنخرق الرياح سليلا  
جاءت بذني رمق لسته أشهر      قد مات أو حب الحياة قليلا

وسبب هذا الضعف ليس الرحلة فقط ، بل سوء التغذية التي كانت عليها الابل ، فهي كما عبر الشاعر :

شهري ربيع ما تذوق لبونهم      الا حموضاً وخمة وذويلا  
ان صورة « السليل » الضعيف الهزيل الذي مات أو كاد يموت ، تقابل أبناء قبيلة الشاعر الذين يتضورون جوعاً ويموتون من الهزال ، يقول الشاعر عنهم :

كتبنا تركن غنيهم ذا خلة      بعد الغنى وفقيرهم مهزولا  
وصورة « السليل » الذي قُذِف في العراء . هي صورة عريف القبيلة أيضاً ، الذي ضربه عمال الصدقات ، حتى بدا لا يقوى على الحراك ، فالقوه في فلاة واسعة بل ان الشاعر استخدم كلمة « خرق » . . . . . تجرّ به الرياح . . . وهي الألفاظ التي استخدمها لرسم صورة « السليل » على وجه التحديد . يقول :

أخذوا حمولته فاصبح قاعداً      لا يستطيع عن الديار حويلا  
يدعو أمير المؤمنين ودونه      « خرق » تجرّ به الرياح ذيولا

وصورة الابل التي فقدت صوى الطريق ومعالمها ، فلم تجد لها دليلاً الا نجمين « فرقدين » وهما نجمان لا يغربان باعتقاد العرب ، ان هذه الصورة في المستوى الأول تقابل في المستوى

الثاني صورة قبيلته التي تشتت جمعها ، وقطعوا الفيافي « اليمامة » خائفين كان قوماً يطاردونهم لادراك ثأر عندهم ، وصورة القبيلة هذه معناها أنها افتقدت « الرائد » الذي اعتادت العرب أن تتبعه وتسير وراءه لأنه أدري بمعالم الطرق ومسالكها ، ان الرائد في هذه القصيدة الذي يتشوق اليه الشاعر وذكره أكثر من مرة هو « عدل الخليفة » كما قال الشاعر ، وهذا مصدره سماوي أيضاً .

★ ★ ★

#### □ الحواشي :

- ١ - جمهرة اشعار العرب • القرشي ج ٢ ، ص ٩١٢ .
- ٢ - التطور والتجديد في العصر الأموي • شوقي ضيف ، ص ١٩٨ ) .
- ٣ - طبقات فحول الشعراء ٥١١/١ .
- ٤ - ديوان الراعي النميري ، ص ٦٤ .
- ٥ - العصر الأموي أدبه وحضارته ، عزيزة فوال بابتي ، ص ٤٥٥ .
- ٦ - خزائن الأدب ، البغدادي • ( تحقيق عبدالسلام هارون ) ١٤٦/٣ .
- ٧ - طبقات فحول الشعراء ، ج ١ ، ص ٥٠٢ .
- ٨ - تاريخ الشعر العربي ، محمد عبدالعزيز الكفراوي • ج ٢ ، ص ٣٧٦ .
- ٩ - ديوان الراعي ، ص ٦٣ .
- ١٠ - ديوان الراعي ، ص ٢٦٢ .
- ١١ - ديوان الراعي النميري ، ص ٢٨٦ .

★ ★ ★

#### □ المراجع :

- ١ - تاريخ الشعر العربي ، محمد عبد العزيز الكفراوي ، ( دار النهضة مصر ، ط ١ ، ١٩٦٧ م ) .
- ٢ - التطور والتجديد في الشعر الأموي ، شوقي ضيف ، ( ط ٣ ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ م ) .
- ٣ - جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد القرشي ، تحقيق محمد علي الهاشمي ، السعودية لجنة البحوث والترجمة والنشر ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ( ١٤٠١ هـ ، ١٩٨١ م ) .
- ٤ - خزائن الأدب ، البغدادي ( ط ١ ، مصر ، المطبعة الميرية ) .
- ٥ - ديوان الراعي النميري ، جمعه وحققه راينهرت فايبرت ، ( بيروت ، ١٠٤١ هـ ) .
- ٦ - طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمعي ، تحقيق محمود شاکر ، ( القاهرة ، مطبعة المدني ، ١٩٧٤ م ) .
- ٧ - العصر الأموي ، أدبه وحضارته ، عزيزة فوال بابتي ، ( بيروت ، دار الانشباط ، ط ١ ، ١٩٨٤ م ) .

★ ★ ★